

كلمة الأستاذ رافع ابن عاشور

في

موكب تكريم المرحوم الشيخ كمال الدين جعيط

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة،

سيّداتي، سادتي،

في أعقاب هذا الموكب المهيب، المقام في رحاب هذه المؤسسة المجيدة، دار الكتب الوطنيّة، بجماعة محمودة من مديرتها العامّة، الأستاذة الدكتور رجاء ابن سلامة، بمناسبة الانتهاء من إعداد الفهرس التفصيلي لخزانة كتب "الشيخ كمال الدين بن محمد العزيز بن يوسف جعيط" (رحمهم الله تعالى جميعاً)، وإحياء للذكرى الخامسة لوفاة صاحب الفضيلة، سماحة مفتي الجمهوريّة، الشيخ العالم الجليل، كمال الدين جعيط، تخليداً لذكراه واعترافاً بجميله، على عموم الباحثين المتردّين على هذه الدار خاصّة، وعلى ما أسداه خلال حياته المباركة من جليل الخدمات للبلاد ولأبنائه من طلبة الجامع الأعظم و الكليّة الزيتونيّة للشريعة وأصول الدين والمعهد الإعدادي بحلق الوادي والمصلّين وراعه والمستفتين له عامّة، لا أجد أحسن وأبلغ ممّا تُستهلّ به كلمة الشكر والامتنان هذه، من الحديث الذي

رواه الإمام مسلم في صحيحه من "كتاب الوصية" في "باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته" حيث قال: حدّثنا يحيى بن أيوب وقتيبة (يعني ابن سعيد) وابن جحر. قالوا: حدّثنا إسماعيل (هو ابن جعفر) عن العلاء، عن أبيه أبي هريرة أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية. أو علم ينتفع به. أو ولد صالح يدعو له". وهذا الحديث يختزل كلّ ما قيل اليوم وما قيل في مناسبات مماثلة سابقة عن حياة فقيدنا الشيخ كمال.

فمنذ وفاته منذ خمس سنين مضت، أي منذ اليوم الثاني والعشرين من شهر ديسمبر من سنة 2012م، عن سنّ تجاوزت التسعين سنة، لم ينقطع أبداً ذكر الشيخ الجليل، وما زال الحديث يدور حوله، وحول مناقبه، وحول أخلاقه، وحول أعماله، وحول علمه، وكأنّه مازال حيّاً بيننا، بفكره وحديثه ومناقبه وآثاره.

فالراحل العزيز، وهب، قبل مماته، كلّ مكتبته بما احتوت علي ه من كتب مخطوطة ومطبوعة ومجلّات ووثائق إلى دار الكتب الوطنيّة، كـ " صدقة جارية لوجه الله سبحانه وتعالى، لينتفع بها طلاب العلم والباحثون من تونس والخارج" وذلك حسب ما جاء بقلمه في الرّسالة التي وجّهها يوم 4 أكتوبر 2012 أي أقلّ من ثلاثة أشهر قبل مفارقتة الحياة، إلى وزير الثقافة آنذاك المهدي مبروك والتي لم يتلق عنها أي إجابة.

وقد ألحّ رحمه الله، برّا بوالده وبجدّه، أن يحمل هذا الرّصيد اسمه واسم المنعم المبرور والده، شيخ الإسلام، وأوّل مفت للديار التّونسيّة بعد الاستقلال، محمّد العزيز جعيّط، طيّب الله ثراه، واسم جدّه للأب الوزير الأكبر، الطيّب الذّكر، يوسف جعيّط، على اعتبار أنّ مجموعة الكتب والوثائق المهداة هي تراكم ما جمعه الجدّ والوالد، أتممها وأثراها الحفيد. ورغم أنّ الفقيد، عند قيامه بهذه الهبة، لم يكن يرجو جزاء ولا شكورا، وإنّما أقدم على ذلك إيمانا وورعا واحتسابا، فقد فاز بذلك الصنيع بما ذكره الرّسول الأكرم من عدم انقطاع الذّكر. وما اجتماعنا اليوم وبهذا الحضور المتميز، إلا دليل قاطع على تواصل ذكره . فالكلّ يذكر هذا الفعل الحسن ويقدره ويدعو لمن قام به بالرّحمة وحسن القبول والجزاء الأوفى.

لكن فقيدنا لم يخفّ لنا هذه الصّدقة الجارية فحسب، بل زرع طوال حياته، منذ تحصّله على صفة المدرّس بالجامع الأعظم وفروعه ، سنة 1950، علما نافعا غزيرا، سواء في الفقه وأصوله، أو في العربيّة وقواعدها، أو في الأخلاق وصفاتها. ولعلّ أبرز ما يمكن أن نذكره في هذا الصّدّد، زيادة على ما أنجز من جمع لمؤلفات والده ونشرها، ومن كتابة مقالات لم يخل منها عدد من مجلّة "الهداية"، أو من أبحاث قدّمها خلال مشاركاته العديدة في مؤتمرات دوليّة، خاصّة بمجمع الفقه الإسلاميّ بجدّة، الذي كان يُشرف عليه قرينه صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور محمّد الحبيب بلخوجة، أو ما أصدر من الفتاوى التي عند تولّيه الفتيا، (وهذه مناسبة لنطلب من صاحب الفضيلة سماحة الشيخ سيدي عثمان بطّيح ليتفضّل بإعطاء الإذن لمصالح

دار الإفتاء بنشرها في كتاب يتولّى فضيلته تقديمه)، أو ما ألقى من خطب
جُمعيّة مخطوطة موجودة ضمن الرّصيد الموهوب، كم نتمنّى لو تُبادر دار
الكتب الوطنيّة بنشرها لتكون نبراسا تستعملها وزارة الشؤون الدّينيّة
لتكوين الخطباء وتلقينهم آداب الخطبة المنبريّة التي تكاد تندثر.

وزيادة على كلّ هذا التّراث العلميّ لا يمكن أن نتغاضى على تلك الوصيّة
العلميّة الخالدة " ميثاق علماء تونس "، فقد حرص أسابيع معدودات قبل
الوفاة، وأياما إثر فقدانه شريكة عمره، على نشر هذه الوثيقة باللّغتين
العربيّة والفرنسيّة (بترجمة وبطلب منه من حفيده للأخت، الأستاذ عياض
ابن عاشور). وإن لم يكن ميثاق علماء تونس من تحرير شيخنا الرّاحل،
فقد أعدّ تحت إشرافه وبمتابعته، ووقّع الميثاق وختمه في 3 من ذي الحجّة
من سنة 1433هـ الموافق ليوم 19 أكتوبر 2012م. وقد ذكّر الميثاق
بالتّوابت التي تميّز التّدين التّونسيّ، وشهّر بما شهدته بلادنا من حملات
تشويه وتغيير للهويّة وذلك إزاء ما عاشته السّاحة الدّينيّة التّونسيّة آنذاك
من نقاشات وأطروحات وأفكار غريبة عمّا تعودّ عليه التّونسيّون فيما
يتعلّق بشؤون دينهم و معادهم، وما صاحب ذلك من تفشّي فتاوى
وتأويلات هجينة لكتاب الله وسنة نبيّه المصطفى الكريم من قبل أشخاص
لا علم لهم ولا دراية لا بالقرآن والحديث، ولا بعلومهما، ولا بالفقه
وأصوله، ولا باللّغة وقواعدها، ولا بالأداب ومستلزماتهما، ومن اختلاط
للحابل بالنّابل وتناس لما ميّز وما زال يميّز الدّين الإسلاميّ في هذه الدّيار
التّونسيّة الطّيبة، منذ فتح إفريقيّة وتأسيس القيروان سنة 50 للهجرة (670

(م) إلى اليوم، كقلعة للمذهب المالكي وللعقيدة الأشعرية ولطريقة الإمام أبي القاسم الجنيد إمام القوم في مقام الإحسان وعلم التزكية والسلوك، وما عشناه من اعتداءات على أضرحة الأولياء والصالحين ومقامات همونبش القبور ومن تشكيك فيما تواتر عليه الناس منذ قرون مثل الاحتفال بمولد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وسرد قصة مولده، وإنشاد القصائد العصماء للإمام البوصيري في مدح خير البرية (الهمزية والبردة)، ومن إنكار أداء صلاة الجمعة في بعض الجوامع، وخاصة بالجامع الأعظم خلال كل الوقت الفاصل بين صلاتي الظهر والعصر، وما إلى ذلك من محاولات فرض بعض المذاهب غير السنية ببلادنا، أو اتباع مذاهب تُروّج لها العديد من الفضائيات ومن محاولات زرع المذهب الوهابي الذي كان نبذّه التونسيون منذ القرن التاسع عشر للميلاد حيث ألف العلامة الشيخ إسماعيل التميمي كتاباً مطوّلاً سمّاه "المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهابية"، وتولّى أيضاً قاضي الجماعة الشيخ عمر المحجوب الردّ على الدّعوة الوهابية في رسالة مشهورة.

وقد وجّه الشيخ كمال الدين جعيط، رحمه الله، في ميثاق علماء تونس الدّعوة إلى "كلّ أهل تونس إلى الوعي والالتزام ونبذ التّشردم والصّدام والأخذ من أهل السّنند المتّصل على المنهج الزّيتونيّ الحقيقيّ من منهله الصّافي ونبعه النّقيّ وأنّه لا يحقّ لأحد أن يبذل ذلك بأيّ حجة كانت أو يحرفه أو يأتي بما يناقضه لأنّه بذلك خالف إجماع علماء البلاد منذ أن آثرها الله بنور الإسلام وإلى أن يرث الأرض ربُّ الأنام". وقد اعتبر

فضيلة الشيخ عثمان بطّيح هذا الميثاق "وثيقة منهجية أصيلة تمثل في ذاتها دستوراً للعلماء في التشبّث بهويّة تونس الإسلاميّة واتباعها".

ولتواصل ذكر الشيخ كمال الدّين جعيط وجه آخر يتمثّل في دعاء أبنا الصّالحين البررة، سواء كانوا من صلبه أو من أبناءه الرّوحيين، وكثير منهم متواجدون اليوم، وحرصوا أن يكونوا حاضرين في هذا الموكب التّكريميّ المشهود.

هكذا جمع الشيخ كمال الدّين جعيط جميع الأسباب التي أشار إليه الحديث النبويّ الذي استهللنا به هذه الكلمة من صدقة جارية وعلم نافع وابن بارّ يدعو له فلبّي داعي ربّه راضياً مرضياً.

حضرات السيّدات والسّادة،

لا يسعني، ختاماً لهذه الكلمة، إلّا أن أتوجّه باسم كافّة أفراد أسرة الشيخ كمال بالشّكر الجزيل إلى الأستاذة الدّكتورة رجاء بن سلامة وكافّة الطّاقم العامل معها سعيهم المبرور وعملهم المشكور وخص بلذكر الأستاذة فاطمة العايب والأستاذ العابد كشك ع لى إعداد فهرس خزانة الشيخ كمال الدّين بن محمّد العزيز بن يوسف جعيط ووضعها على ذمّة الباحثين. ولا أنسى أن أجدّد الشّكر والامتنان للأستاذ كمال قحّة، المدير العامّ السّابق لدار الكتب الوطنيّة، الذي أشرف سنة 2012، على تلقّي المكتبة من صاحبها والذي كان قد نظّم أربعينيّة شيخنا المرحوم في هذه الرّحاب العلميّة العامرة وأن أثني على جميع السّادة المتدخلّين وخاصة الأستاذ خالد

كشير، لما تفضّلوا به من إفادة، وأحمد لكم جميعا مسعاكم وما تجشمتم في هذه الأُمسيّة من المشقّة فلليتم إلّا أن تكونوا حاضرين في هذا الاجتماع الخاشع.

والله أسأل أن يتغمّد الرّاحل العظيم بالرّحمة والرّضوان وأن يسكنه فراديس الجنان مع الّذين " أنعم الله عليهم من النّبیین والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا" وأن يجعل قبره روضة من رياض الجنّة. ولتبق ذكراه حاضرة أبدا ولتكون مصدر استلهاام لنا جميعا "وقل ربّ اغفر وارحم وأنت خير الرّاحمين".

بارك الله فيكم جميعا وجزاكم كلّ خير. والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رافع ابن عاشور

دار الكتب الوطنيّة

يوم الجمعة 5 جانفي 2018.